النفحة الثامنة والعشرون: وداعاً يا رَمَضَانُ

أيها الأحباب:

هذه هي سنة الحياة، بدايات ونهايات، لقاءات ووداعات، أحزان ومسرات، تقلبات وتغيرات، أيام تمضي، وشهور تنقضي، وسنوات تطوى طياً، الأفلاك تدور، وحركتها تمور، نجوم تستطع ثم تأفل، هلال يهلُّ وعرجون يتوارى، نهار يشرق، وليل يزحف: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النُّور: 44].

يا مسلمون:

ها هو شهر الصيام قد عزم على الرحيل، ومضى ولم يبق من أنفاسه إلّا النزر اليسير، وما هي إلّا ساعات ويرحل الضيف الكريم، والوافد العزيز، الذي كانت الدنيا بالأمس القريب مترقبة قدومه بفرح وحبور...

بالأمس استقبلناك يا شهر الخير والعطاء، فكنت خير زائر، لقد غمرتنا بفضلك وإحسانك، وأفضت علينا من بركاتك ونفحاتك، عشناك لحظة لحظة، وساعة ساعة، وليلة ليلة، فما أحلاها من لحظات، وما أمتعها من ساعات، وما أسعدها من ليالٍ وأيام...

لكنَّ القدر وقع، ورحيلك أزف، وحان وقت الفراق، وجاء زمن الوداع، لكن من منا يملك نفسه وشعوره؟ إنه وداع يثير الشجون، ويبكي العيون، النفوس ملتاعة، والقلوب مجروحة، والأسى والحنين بديا على وجوه الصالحين، وآهات الفراق علت على محيا العابدين، وكيف لا تتفجر مقل الأعين بالدموع، وقد فارقت شهر البر والإحسان، وموسم المغفرة والقرآن، وزمن العتق من النيران.

لا إله إلّا الله، ما أصعب الفراق، وما أشد وقعه على النفوس، وخطبه على القلوب، صعب لأن فراقه أحرق القلوب، ووداعه ألهب المشاعر

والنفوس، ولكن لا نقول إلّا ما يرضي ربنا تبارك وتعالى: إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، وإنا على فراقك يا شهر رَمَضَانَ لمحزونون، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إخـوتي:

لقد استعد الشهر للرحيل، وحزم أمتعته، وأعد عدة سفره، وطوى أعمال العباد في جعبته، وتوارى وراء الجبال، وها هو ذا يلوح لكم بأيدي الوداع، وقد غربت شمس آخر نهار له، وغربت معها الخيرات الحسان...

فوداعاً يا ضيف الرحمٰن، لكن على أمل لقاك بإذن الواحد الديان...

وداعاً يا من حمل أعمالنا إلى الكبير المتعال، لكن عساك أن تكون شفيعنا يوم الزحام.

أيها المسلمـــون:

كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يستعدون ستة أشهر لاستقبال رَمَضَانَ، فإذا ما انقضى حزنوا على فراقه، وودعوه ستة أشهر أخرى، وبهذا تكون السنة كلها رَمَضَانَ.

كانوا يجتهدون في إتقان العمل وتمامه، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله ويخافون من رده، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1]: كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل، ألم تسمعوا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: 27].

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: لئن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل، أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال مالك بن دينار: الخوف على العمل أن لا يتقبل أشد من العمل.

(1) لطائف المعارف، لابن رجب ص376.

وعن الحسن قال: إن الله جعل شهر رَمَضَانُ مضماراً لخلقه، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق قوم ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون، ويخسر فيه المبطلون.

وروي عن علي رضي الله عنه، أنه كان ينادي في آخر ليلة من شهر رَمَضَانُ: ياليت شعري من هذا المقبول فنهنيه؟ ومن هذا المحروم فنعزيه؟

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول: من هذا المقبول منا فنهنه؟ ومن هذا المحروم منا فنعزيه؟ أيها المقبول هنيئاً لك، أيها المردود جبر الله مصيبك.

ليت شعري من فيه يُقبلُ منا ... فيُهنَّا يا خيبة المردود
من تولى عنه بغير مقبولٍ ... أرغم الله أنفه بخزيٍ شديد

أخرج ابن حبان في صحيحه أن النبي صعد المنبر فلما رقي عتبة قال: «آمين»، ثم رقي عتبة أخرى فقال: «آمين»، ثم رقي عتبة ثالثة فقال: «آمين»، ثم قال: «أتاني جبريل فقال يا محمد: مَن أدرك رَمَضَانُ فلم يغفر له فأبعده الله قلت: آمين، قال: ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله قلت: آمين، فقال: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله قل: آمين فقلت: آمين»[1].

ماذا فات من فاته خير رمضان؟ وأي شيء أدرك من أدركه فيه الحرمان؟ كم بين الناس من حظهُ فيه القبول والغفران، كم بينهم حظه فيه الخيبة والخسران، رب قائم حظه من قيامه السهر، وصائم حظه من صيامه الجوع والعطش.

ما أصنع هكذا جرى المقدور ... الجبرُ لغيري وأنا مكسور
أسير ذنبٍ مقيدٌ مهجورُ ... هل يمكن أن يُعيّر المقدور

أيها المسلمون:

ونحن نشيع شهر البر والإحسان، وقد فاز منا من فاز، وخسر منا من خسر، وأسأله تعالى أن نكون جميعاً من الفائزين، ينبغي علينا أن نتسائل، هل اتقينا الله فيه حق تقاته؟ هل تهذبت فيه نفوسنا من الشحناء والبغضاء والأدران، هل أصلحنا

(1) صحيح ابن حبان، 2/ 140، رقم: (4).

أحوالنا وجمعنا شملنا؟ هل كان لشهر الصيام أثر على نفوسنا فصقل معدنها، وعلى قلوبنا فأزال الران عنها، فأصبحت مشرقة بنور الإيمان: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: 16].

هل كان لشهر الصيام أثر على علاقتنا الأخوية الإيمانية فربت، وعلى وحدتنا واعتصامنا بحبل الله تعالى فترسخت: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: 103].

هل كان لشهر الصيام أثر على أخلاقنا فكرمت، وغاياتنا فنبلت، وسلوكنا فانضبط، واقتبسنا شعلة من أخلاق النبوة فاستنارت لها حياتنا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: 4].

من منا سكب العبرات وقت السحر؟ وذرف الدموع الحارّة عند الإفطار؟ وهل تبنا من جميع ذنوبنا وهجرنا الآثام؟ ونوينا الاستمرار على الطاعة في رمضان وسائر الشهور والأيام؟

إننا نشاهد كثيراً من أبناء[1] الإسلام إذا حلَّ رمضان أقبلوا على الطاعة والعبادة، ولزموا المساجد والجماعة، حتى إذا ذهب رمضان وانقضى عادوا إلى ما نهوا عنه، وانغمسوا في ظلمات شهواتهم وملذاتهم، وتركوا عبادة ربهم...

يا مسلمـــون:

وطنوا أنفسكم وحاسبوها قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا سجلتم في صحائفكم قبل فوات الأوان، فمن أحسن فليزدد من الإحسان، وليسأل الله الثبات فإنه لا يدري بماذا يختم له، وليكثر من قول: يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك، وليهتمَّ بقبول عمله اهتمام عباد الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم

(1) المواهب السنية ص380.

مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: 57 ـ 61].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: 60] قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»[1].

يا مسلمـــون:

كل إنسان عرضة للزل والخطيئة، فمن فرط في دينه فليبادر إلى التوبة والعمل الصالح، قبل أن يغلق الباب، ويسدل الحجاب.

يا أرباب الذنوب العظيمة، الغنيمةَ الغنيمةَ في هذه الأيام الكريمة، فما منها عوض ولا لها قيمة، فكم يعتق فيها من النار من ذي جريرة وجريمة، فمن أعتق فيها من النار فقد فاز بالجائزة العميمة والمنحة الجسيمة.

يا من أعتقه مولاه من النار، إياك أن تعود بعد أن صرت حراً إلى رقّ الأوزار، أيبعدك مولاك عن النار وأنت تتقرب منها؟ وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها، ولا تحيد عنها؟!.

وإنّ امرءاً ينجو من النار بعدما ... تزوّد من أعمالها السعيد

إن كانت الرحمة للمحسنين، فالمسيء لا ييأس منها، وإن تكن المغفرة مكتوبة للمتقين، فالظالم لنفسه غير محجوب عنها: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: 53].

فيا أيها العاصي ـ وكلنا ذلك ـ لا تقنط من رحمة الله لسوء أعمالك، فكم

(1) رواه الترمذي، 5/ 327، رقم: (3175).

يعتق من النار في هذه الأيام من أمثالك، فأحسن الظن بمولاك، وتب إليه، فإنه لا يهلك على الله إلّا هالك.

يا من ظلمت نفسك بكثرة الذنوب والتفريط، ويامن ضيعت الأوقات وأجل الساعات، مدّ الآن يديك إلى الرب الكريم، والقلب وجل، والنفس أواهة، والعين دامعة وقل: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23].

وقل: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: 87].

أحباب الله: استودعوا شهركم عملاً صالحاً يشهد لكم به عند الله، وودعوه عند فراقه بأزكى تحية وسلام.

سلام من الرحمٰن أوانِ ... على خير شهر قد مضى وزمان
سلام على شهر الصيام فإنه ... أمان من الرحمٰن أيُّ أمانِ
لئن فنيت أيامك الغُرُ بغتة ... فما الحزن من قلبي عليك بفان

قلوب المتقين إلى هذا الشهر تحن، ومن ألم فراقه تئن، كيف لا يجري للمؤمن على فراقه دموع، وهو لا يدري هل بقي له في عمره إليه الرجوع، أين حَرَقُ المجتهدين في نهاره؟ أين قلق المتهجّدين في أسحاره؟

يا شهر رَمَضَانَ ترفق، دموع المحبين تُدفق، قلوبهم من ألم الفراق تشقق، عسى وقفة للوداع تطفئ نار الشوق ما أحرق.

عسى ساعة توبة وإقلاع ترفو من الصيام كل ما تخرّق.

عسى منقطع عن ركب المقبولين يلحق.

عسى أسير الأوزار يطلق.

عسى من استوجب النار يعتق.

عسى رحمة المولى لها العاصي يوفّق.

وعسى وعسى من قبل وقت التفرق ... إلى كل ما ترجو من خير وترتقي
فيجبر مكسور ويقبل تائب ... ويعتق خطّاء ويسعد من شقي

وداعـاً يـا رَمَضَانَ:

ترحَّل الشهر والهفاه وانصرما ... واختصَّ بالفوز في الجنات من خدما
وأصبح الغافل المسكين منكسراً ... مثلي فينا ويحه ياعُظم ما حرما
من فاته الزرع في وقت البذار فما ... تراه يحصد إلّا الهمَّ والندما

opeikandl.com